أبي و الحرس القومي

عندما يغيب القانون يحل الطغيان

كان ترددي صيف عام ١٩٧٣ في الانتماء إلى حزب البعث الحاكم مُبررًا، إذ سرعان ما عادت ذاكرتي إلى أحداث إلقاء القبض على أبي المسكين والتنكيل به وتعذيبه إثر انقلاب الثامن من شباط الأسود عام ١٩٦٣، وقاده حزب البعث العراقي؛ الذي شكَّل ميلشيا الحرس القومي التي عاثت في البلد فسادًا، نشرت الرعب وأشاعت الفوضى والجريمة، وأجازت لنفسها انتهاك القانون وحقوق الإنسان.

ألقى الحرس القومي القبض على كل من اعتقدوا أنه مناوئ لهم بأفكاره وتوجهاته، ولم يخلص منها حتى الغُرماء من كان له معهم خصومة شخصية، قادوا الناس كالخراف إلى مقراتهم العفنة وأذاقوهم الذُل والهوان، داهموا بيوت الناس دون احترام أو إنسانية، ومنها كان بيتنا، حيث أرادوا إلقاء القبض على شقيق أبي الأصغر، ولله الحمد أنهم لم يفلحوا، فلو فعلوا لكانوا على عُجالة قد انهوا حياته، ولكن مقابل ذلك ألقوا القبض على أبي الذي لم تكن له أية علاقة بأي حزب سياسي، ولا أية نشاطات نقابية، وتم زجه في السجن وتعذيبه والتنكيل به أشد تنكيل.

كان الحرس القومي سيء الصيت قد شُكِلَ أساسًا لحماية الانقلاب وحزب السلطة الحاكم الجديد، وهو حزب البعث العربي الاشتراكي، كانت قيادة الحرس القومي قد أوكلت إلى الطيار أنور الونداوي وتألف من بعض عناصره البعثيين، انضم إليهم العديد من الانتهازيين والبائسين والعاطلين ومُثيري المشاكل وكل من له عداوات ضد آخرين.

استهدف الحرس القومي جميع الأشخاص المناوئين له من الشيوعيين وغيرهم، ولم تكن مصادفة أن يكون عمي الأصغر عيدان شيوعيًا؛ إذ كانت له نشاطات سياسية ونقابية مشهودة في المجال النقابي.

صباح جديد في يومٍ حزين غير عادي، مُصاحبة لأجواء مُضطربة في البلاد، متوترة وخارجة عن السيطرة، جاءوا كالطوفان حين دخلت مجموعة من الحرس القومي مُدججين بالرشاشات إلى ورشة عمل والدي الواقع في خان الشاه بندر، بقلوبهم المتحجرة وكأن الشرَّ قد عشعش في عقولهم، حيث تواجد معه عمي الأكبر وأخي حبيب الذي يكبرني بخمس سنوات، وكانوا يهدفون إلى إلقاء القبض على عمي الأصغر عيدان، أو على الأقل معرفة مكان تواجده.

عمي الأكبر (داهر جميل) عطر الذكر طيب القلب بريء النوايا؛ ارتعب كثيرًا وتحشرجت روحهُ في صدره أثناء استجوابه، حتى طلب أحد الحرس الآخرين أن يتركوه رأفةً به قبل أن يحتضر، لذا تمَّ تركيز استجوابهم على أبي، أَنَفَ أبي بشدة عن تلبية رغباتهم، وبعد أن عجزوا عن إجباره على الاعتراف اقتادوه أخيرًا بشكلٍ عنيف وفظ كأضحية تتبع راعيها إلى المذبح يوم عيد، إلى بيتنا الواقع في منطقة سوق حنون الشعبية، الذي يقع في الشارع خلف شارع الكفاح وسط بغداد.

من دون رحمة اقتاد الجلادون أبي المسكين من ورشة عمله، بِعنف ودون استئذان اقتحم الحرس القومي بيتنا بعد أن ركلوا أبوابه بأعقاب أحذيتهم الحديدية دون احترام لحرمة البيوت، وانتصبوا كالقدر المحتوم في فناء البيت، كان يصحبهم أحد المَحليين الفاشلين يدعى لطيف، كان دَميم الوجه أنفه كبير كخنزير بري، عريض الكتفين كمصاص الدماء، يستند عليه رأس كبير يحمل عقل أصغر من عقل ضفدع لا يفقه من العلم شيئًا، ينحدر من عائلة ساقطة ولا يمتُ للأخلاق بأية صلة، داهموا كُل من وما كان في البيت.

عمي عيدان أصغر أعمامي عمرًا، وهو شاب في الثلاثينيات من عمره طويل القامة مهيب الجانب حاسم الطبع ومُفعم بالحركة والحياة، ناشط جدًا في السياسة جريء وفاعل في عمله النقابي، ويبدو أنه كان على اطلاع كامل بما يجري، وقد علم بشكل مؤكد أنه سيكون هدفًا لهم في هذه الحملة الشعواء، لذا اتخذ قراره بالهروب جنوبًا عن طريق البصرة إلى إيران، هناك آواه أقارب مندائيين لنا يسكنون في مدينة الأهواز.

كأنهم ذاهبون إلى حرب؛ اقتحمت زُمرة الحرس القومي أبواب بيتنا الخشبية الواسعة بمنتهى الوحشية، وتوزعوا فورًا على جميع أرجاء البيت، منهم من دخل غرف النوم وآخر من استقل السلم صعودًا إلى الطابق الأول، وقام جميعهم بتفتيش البيت بالكامل، قلبوا رأس البيت على أعقابه، توقفت الحياة في البيت بشكلٍ كامل، مراجل النار المخصصة لطبخ الطعام أُطفئت، تركت النسوة غسيلهن بسرعة ومَسحنَ أياديهن بذيول أثوابهن، وبان الخوف والهلع في عيون الجميع.

خلف أمي كنت أقف مُظهرًا جزءًا من رأسي، انظر إلى ما يحصل وأمسك بذيل ثوبها الفضفاض وهي مُرتعبة حد الموت تحاول أن تسند قامتها بعناء، أسمعها تتمتم (دخيلك يا هيبيل زيوا) [1]، أشعر بخوفها ينتقل كعدوى الطاعون إليَّ من خلال رجفة يديها التي أمسكتني بها، بذلت أمي جهد كبير في المقاومة لكنها لم تصمد كثيرًا من هول ما تراه، فتحيرت قطرات المطر الشفافة في عينيها وتكورت وأخذت تنزلق بهدوء على خديها الورديين الناعمين، عندها أطلقت أمي عنانها في بكاء صامت مخنوق، حال ما رأيت بكاء أمي، لم انتظر كثيرًا حتى أطلقت حنجرتي صرخة مُدوية دون قصد انتبه لها الجميع.

:- هيبل زيوا: ويُسمى المُخلّص، ملاك نوراني، وهو رسول الحي.

بعد أن كان الأطفال أولادًا وبناتًا قبل وهلة فرحين يلعبون يتسامرون ويمرحون في فناء البيت الكبير، الذي غدا كساحة حرب لوفرة الأسلحة والعيون الشاخصة الحاقدة لا يُعكر صفوهم أي شيء؛ الآن علتْ وجوه الأطفال حيرة ودهشة كبيرة لدخول هذا العدد الهائل من المُسلحين إلى وسط الدار الذي كان مُفعمًا بالأمن والحب والسلام.

نعم؛ الأطفال لا يفقهوا كثير مما يدور حولهم وتراه عيونهم، ولكنهم بالتأكيد يدركون لغة الجسد من خلال أسلوب الدخلاء الفظ العنيف، وطريقة صراخهم وتلويحهم بالبنادق المُصوبة في وجه الكبار، الذين تجمدوا كجذوع أشجار يابسة، لذا فجأة أجهش الأطفال بالبكاء وأطلقت حناجرهم الطرية ألحانها دفعة واحدة، جلجل صوتهم بسخاء كبير أحال صفاء البيت إلى مقبرة وقت دفن عزيز قوم، هذا ما زاد الأشرار خبلاً وأطار عقولهم من اقحافها.

لم يجد أفراد الحرس القومي والحمدُ لله أي شيء مما توقعوا، مثل أسلحة أو كتب سياسية ومنشورات حزبية أو غيرها، حتى قاموا باستجواب جميع أفراد عائلتنا بطريقة فَجَّة وعنيفة وكنت شاهدًا للحادثة، استجوبوا زوجة عمي عيدان بشكل مُركز ودون رحمة، مُحاولين انتزاع أية معلومة منها ليستثمرونا في معرفة مكان تواجد زوجها وإلقاء القبض عليه... أحد أفراد الحرس القومي يطلق نظرة ساخرة حانقة شاهرًا سلاحه بوجه زوجة عمي، ومطلق في وجهها السمح البريء دخان سيجارته الكريه:

– أخبرينا أين زوجكِ؟

تجيب بنوع من التردد والتهيب والخوف:

– كان هنا صباحًا وخرج باكرًا كالمعتاد إلى عمله.

– أين هو الآن؟

تتلوى زوجه عمي محاولة استراق نظرة خائفة سريعة إلى أبي دون جدوى، وأخيرًا بعد أن تتماسك تقول:

– لا أعرف... كل ما استطيع القول إنه خرج صباح اليوم إلى عمله ولم يعد حتى الآن، وها نحن في منتصف النهار ولا أدري أين هو.

الحرس الذي بدا غاضبًا وهو يحدق بعيون هر عجوز:
– إن لم تخبرينا بمكانه فلسوف نُلقي القبض عليك ونقتادك إلى المقر، وهناك تعرفين ماذا سيحل بك... هناك نستطيع انتزاع اعترافك ببساطة وسهولة، وسوف ترين... ها هل ستخبرينا أم.....

هنا لم تمسك زوجة عمي نفسها وأجهشت بالبكاء، سقطت دموعها ساخنة على خذودها الوردية التفاحية اللون، مما زادها جمالاً وإثارة، سيما وأنها كانت رائعة الجمال وفي ريعان شبابها، أخذت تتوسل إليهم بحرقة وتُقسم لهم بأغلظ الأقسام والإيمان وتصرخ قائلة:
– والله العظيم لا أعرف مكان زوجي...

أحد أفراد الحرس شاخص عينيه يرفع سبابته بوجهها بصرامة ويُضيف:
– وهل اتفقتِ معه على الهروب أيضًا؟ إذًا أنت أيضًا سوف تهربين معه، أليس كذلك؟ قولي لنا وإلا سوف تندمين كثيرًا، عاجلاً أم آجلاً نجد زوجك المناااااضل هذا...

عندها أطلق ضحكة مجنونة سخيفة هاها... هاها، زوجة عمي تنهار وتقول لهم:
– لا أنوي السفر لأي مكان وأنا باقية هنا، أرجوكم ارحموني أستحلفكم بالله أن تتركوني...

واصلت بكائها ونحيبها وشاركنها بقية النسوة، ومع ازدياد عويل وصراخ الأطفال تحول البيت بأكمله إلى سيرك بكاء مجاني، عندها أمر قائد المجموعة الذي أخذت عيناه تطلق شررًا وشرًا بصوتٍ حازم وقاطع أحد أعوانه بإلقاء

القبض على زوجة عمي واقتيادها إلى مقرهم، فما كان من منه ألا أن أمسكها من زندها الطري بقوة وجرها بشدة.

لم تذعن لهم ولم يحصلوا منها على إجابة تدلهم على زوجها، فما كان منهم إلا أن ألقوا القبض عليها واقتادوها معهم، لكن أبي وبشهامته المعهودة تدخل سريعًا، أوقفهم ترجاهم توسل إليهم وسط عويل النسوة وبكاء الأطفال، استحلفهم بالله وأبدى استعداده الكامل لمرافقتهم والذهاب معهم بدلاً من زوجة عمي، عندها وافقوا على اقتياده بدلاً عنها.

اقتاد الحرس القومي أبي المسكين الذي لم يكن له في السياسة لا ناقة ولا جمل، سوى ولعه الكبير للإنصات ليلاً إلى إذاعة لندن عبر مذياعه الترانزستور الصغير الذي يعمل على البطارية ولا يفارق أذنه أبدًا، إذ كان أبي يؤمن أن إذاعة لندن تذيع أخبارها بمصداقية أكبر من الإذاعات المحلية، اقتادوه كالمسيح يحمل صليبه على ظهره إلى مقرهم في منطقة الفضل وتحديدًا في مركز شرطة الفضل الذي تمَّ تحويله إلى مقر للحرس القومي.

ما أن تخطت أرجل أبي بوابة مقرهم العفن؛ حتى سمع صراخ عنيف كأنه يخرج من قعر الجحيم، وأصوات مكتومة سرعان ما أدرك أبي أنها أصوات سجناء ناتجة عن استخدام وسائل الضرب والتعذيب معهم، لم يمضِ لدخوله ثوان إلا وتلقى ضربة حقودة على مؤخرة رأسه من يد أحد جلادي الحرس الثقيلة أفقدته توازنه كادت تسقطه أرضًا.

في هذا المكان يستطيع المرء سماع أحقر أنواع السباب والشتائم التي لم تبتكر بعد في قاموس حياة العراقيين آنذاك، لا نعرف من أين أتي بها هؤلاء الصعاليك، دفع أحدهم أبي بقوة إلى قعر زنزانة صغيرة نتنة بعد أن ركله بعقب حذاءه الثقيل وتوعده بالمزيد، أرعبه وضع السجن والسجناء، هاله ما رأى من أعمال تعذيب وحشية ومن أنين مكبوت، فالخوف والرعب قد طغى على الموقف بالكامل.

بهدوء جلس أبي القرفصاء وهو يتلوى من شدة ألم الضربة التي تلقاها توًا على الأرضية التي بدت لزجة رطبة من آثار دماء الأبرياء، شَمَّ روائح كريهة، الدماء القانية تبدو طازجة تُلطخ الجدران، كلمات ركيكة مكتوبة بالدم الذي يسيل تحت حروفها، تواريخ مشوهة ومحكوكة دون نظام، رسوم غير مفهومة وأسماء بقلم رصاص كأنها كُتبت على عجل، رائحة الظلم تسود في المكان، ارتعب أبي لحاله وأخذت صور الموت تتقافز بين ناظريه، صعب عليه بلع ريقه اليابس أصلاً، وعندها رفع يديه إلى صدره واتجه برأسه إلى الأعلى وكأنه يخاطب السماء وتمتم في سِره (احفظني يا هيي... احفظني يا ماري... احفظني يا مندا ادهيي) وفوضَ أمره لله.

لم يأخذ أبي نفسه حتى نادوا عليه وهنا بدأت مسرحية حزينة جديدة، استجوب الجلادين أبي طويلاً، كالوا له أنواع الشتائم وجربوا معه أشكال التنكيل والضرب المبرح، وهددوه بتعليقه من يديه بالمروحة السقفية مُحاولين استنطاقه بالقوة وانتزاع المعلومات حول مكان تواجد أخيه الأصغر، أصَرَّ والدي على الإنكار بعدم معرفته أي شيء، ادعى أن عمي قد خرج إلى عمله صباح نفس اليوم مبكرًا ولم يره لاحقًا، فما كان من مُحقق التعذيب إلا أن بدأ بإطفاء السجائر المتوهجة بتلذذ ودم بارد، واحدة تلو الأخرى على يدي أبي ولم يكتفِ حتى قام بضربه بشكل مبرح وقاسي على وجنتيه، ثم على أذنيه، ضربة أحدثت نزفًا شديدًا في غشاء أذنه أدَّت إلى إعاقة سمعية مزمنة لوالدي الطيب لازمته طيلة حياته.

استمرت ماكينة التعذيب اللا إنسانية لأبي من الصباح لغاية المساء دون توقف، وهو يعاني كثيرًا من ظلمتين؛ إحداهما آلام التعذيب الجسدي وسوء وضعه النفسي، وثانيهما خوفه الشديد مما يمكن أن يحصل لعائلته خارجًا... أبي المسكين الذي لم يتعرض طيلة حياته لمثل هذا التعامل غير الإنساني حيث كان

في أسوأ حالاته، إذ لم يكن بإمكانه شرب جرعة ماء ولم تدخل معدته لقمة طعام واحدة منذ الصباح الباكر حين انطلق إلى عمله.

يبدو أن الله والقدر قد استلطفا حال والدي حين مر أحد الحراس الشباب الذي كان لحسن الحظ يعرف والدي قليلاً – لا أعرف كيف – ويعلم بوضعه المُسالم البعيد كل البعد عن أمور السياسة ونشاطاتها، وبعد أن راعهُ ما شاهد في حال أبي المُزري وهو يعاني الأمرين بعد التعذيب الوحشي؛ قام هذا الشاب برجاءهم لإطلاق سراحه، ويبدو أنه كان يحظى باحترامهم فتم له ذلك، أطلقوا سراح أبي بعد أن أجبروه بالتعهد بعدم البوح لأي أحد بما جرى له، وكذلك هددوه بالأسوأ في حال إن فتح فمه.

عصر ذلك اليوم المشؤوم عاد أبي إلى البيت؛ بدا كظل هزيل مسحوق مهموم خائر القوى، بعد أن أغرقه التعذيب في ظلمات الكون وهدَّه التعب، لكن داخله كان فرحًا صامد الإرادة كونه لم يخبر الأوغاد بأي حرف عن مكان تواجد أخيه الأصغر، وكان منتصرًا لإنقاذه شرف العائلة من دنس الأشرار.

استقبلته دموع أمي قبل يديها، وكل من كان في بيتنا بعيون لامعة دامعة حزن وألم شديد عليه، راعنا ما شاهدنا، لقد كان أبي كشبح يتكئ على ظِله حين يمشي، أجلسناه بحنان على بساط بلدي مزركش قديم في غرفة نومه، اتكأ أبي على جدار الحائط وبدا أنه مُتألم، تملأ حدقات عينيه أسرار عميقة، وبعد أن نظر بتفحص ودقة إلى جميع من حوله أخذ نفس عميق مطمئن، وهنا لم يتمالك نفسه فبكى بحرارة وحسرة على كبرياءه الذي أهدره الجلادين، عندها سقطت دموع كل من كان حوله كأنهار وغسلت أرواحهم المُعذبة، بعد وهلة تماسكوا قليلاً قاموا بغسل دمائه، داووا جراحه، سقوه جرعة ماء باردة جلبوه في إناء نظيف مباشرة من صنبور الماء، وقدموا له الطعام الذي لم يقربه بعد أن فقد أبي شهيته للأكل تمامًا، من يرى ما شاهده أبي ستعاف نفسه أي طعام.

بعد أن هدأ قليلاً أخذ أبي يسرد حكايته، وبحزم طلب منا عدم البوح لأي أحد بما جرى له، خوفًا من عودة الحرس مرة أخرى، لم تكن أمي الحنون متأكدة من عودة والدي سالمًا إثر ما تراءى على مسمعها من جرائم فظيعة كالقتل والتعذيب واغتصاب للنساء وغيرها قامت بها ميلشيا الحرس القومي الإجرامية.

ويجدر الإشارة إلى أن من حُسن الصدف أن عمي كان قد أخلى بيتنا من جميع أنواع الكتب والمنشورات الحزبية قبيل هروبه إلى إيران، عدا مسدس صغير كان قد دفنه في حفرة تحت إحدى بلاطات أرضية البيت، على إثر ما حدث قام والدي وأخي ليلاً بإخراج مسدس عمي ولفاه بقطعة قماشية وقذفاه في بالوعة المجارير القريبة من بيتنا، وبهذا تمَّ إزالة ومسح جميع آثار التورط وأدلة الجريمة السياسية، ونحمد الله أن الحرس القومي لم يستطيعوا اكتشاف هذا المسدس اللعين، وإلا لكان وضع وأبي وحال كل أفراد العائلة أسوأ بكثير، وما من أحد يمكنه تكهن ما الذي كان يمكن أن يحصل لهم لو وجدوا هذا المسدس.

بعد فترة ليست طويلة من إطلاق سراح أبي من الاعتقال اتخذ قراره الحاسم بالتشاور مع زوجة عمي أن تقوم الأخيرة مع بنتيها بالهروب من البلد والالتحاق بزوجها في إيران؛ خوفًا من عودة الحرس القومي واعتقالها والاعتداء عليها، لاسيما وأن سمعتهم في مجال اغتصاب النساء كانت تزكم الأنوف، وهكذا حصل؛ تدبروا الأمر وهربت زوجة عمي مع بناتها إلى البصرة، بمساعدة أقارب لنا في البصرة تمَّ تهريبها إلى إيران حيث اجتمع شملها بزوجها.

استأجر عمي غرفة في بيت أحد أقارب لنا في مدينة الأهواز الإيرانية، واستطاع أن يحصل على عمل كميكانيكي على مكائن الخراطة، وبقي مع عائلته هناك حتى ما بعد قيام انقلاب الثامن عشر من تشرين الثاني ١٩٦٣ الذي أطاح بحكم حزب البعث على يد عبد السلام عارف، بعيد الانقلاب وبعد

استتباب الأمن وإحلال الأمان في العراق وبغداد؛ عاد عمي وزوجته وبناته من منفاه في إيران إلى بغداد بعد أن رزقه الله هناك بتوأمين بنات.

لقد ترك الحرس القومي انطباعًا لم ينسه أبي طيلة حياته، بسبب الآلام النفسية وجميع أنواع الضرب والتعذيب الجسدي التي طالته على يد جلادي هذا النظام اللاإنساني وحرسه اللعين، ظل والدي طوال حياته يمقت بقوة هذا الحزب وهذه الزمرة الشيطانية.

في حادثة منفصلة أخرى ما زلتُ أذكرها تمامًا إلا أنها لم تكن بسبب نشاط عمي الأصغر السياسي، وليست مع أبي المسكين، وإنما كانت بسبب حادث إطلاق رصاص عشوائي حصل في حيِّنا، مما استدعى الحرس القومي إلى اقتحام وتفتيش جميع بيوت الحي ومنها بيتنا لإيجاد مصدر هذه النيران وإلقاء القبض على فاعله.

كان يوم عادي بجو مشمس رائق، حينها كنتُ ألعب في فناء بيتنا الواسع مع الأطفال الآخرين، كنتُ أستطيع مُشاهدة ابن عمي الأكبر نزار وهو يسير ببطئ شديد قاطعًا سطح الطابق العلوي ذهابًا وإيابًا، يمسك كتابه بيده يُذاكر دروسه المدرسية، فجأة اقتحم عناصر الحرس القومي كعادتهم مُدججين بأسلحتهم أبواب البيت دون استئذان أصحابه، وانتشروا كالسرطان في أرجاء البيت، بعضهم ما أن رأى ابن عمي في سطح الطابق العلوي حتى صرخوا به مصوبين رشاشاتهم نحوه ومطالبينه بالتوقف الكامل وإلا سيكون هدفًا لسلاحهم.

توقف جميع الأطفال عن اللعب، هرب بعضهم وارتموا في أحضان أمهاتهم، البعض الآخر من الحرس القومي صعد سلم البيت بسرعة هائلة كي يلقي القبض على ابن عمي المسكين بعد أن اعتقدوا أنه هو الذي أطلق النار، هرعت الأمهات إلى فناء البيت كي يعرفن ماذا يدور في البيت، اصطدمت وجوههن بفوهات البنادق وأعقاب أحذيتهم الحديدية، جمدن في مكانهن دون حياة أو حركة.

بدهشة وخوف عميقان وقف ابن عمي تحيطه فوهات رشاشاتهم من كل جانب، رموا كتابه من يده على الأرض، فتشوه بطريقة وحشية تفتيشاً كاملاً، فحصوا رائحة ملابسه، كمجرم حرب سألوه آلاف الأسئلة والتي لم تخطر على بال شاب يافع يوم، وبعد أن تأكدوا من أنه ليس الفاعل تركوه كشبح شبه إنسان، هبطوا السلم بسرعة، تركوا البيت على عجل دون اعتذار أو وداع، وأسرعوا إلى بيت آخر.

obeikan.com